

أبو حامد الغزالي

الدرس
10

أهداف الدرس

1. أن أتعرف معالم فكر الإمام الغزالي و ثروته العلمية الزاخرة؛
2. أن أثبت مكانته الفكرية ومنهجه الفلسفي.
3. أن أتمثل منهجه النقدي لإنضاج وعي وفهمي.

تمهيد

إن كل إنتاج ناضج أفرزته عبقرية الإنسان المسلم في كل عصر وحين سيبقى شاهدا حيا على صاحبه، مدوّنًا في سجل تاريخه، خالدا في ذاكرة الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها المديد، وتعاقب أزممنتها الفريدة، وأعلامها الكثر الأجلاء، والإمام الغزالي من هذا الصنيع العلمي. فمن هو الإمام الغزالي؟ وما معالم شخصيته الفكرية؟ وما منهجه في الدرس الفلسفي الإسلامي؟

نص الانطلاق

1. قال الإمام الغزالي: «العلم اليقيني هو الذي ينكشف به المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا: مَنْ يقلب الحجر ذهباً، والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وإنكارا. فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا، بل الثلاثة أكثر من العشرة، بدليل أنني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها، وشاهدت ذلك منه لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأما الشك بسببه فيما علمته فلا، ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني».

[المنقذ من الضلال، ص26]

2. وقال أيضا: «لُعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان تهافتهم، فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر، لا دخول مدّع مثبت، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعا بإلزامات مختلفة، فألزمهم تارة مذاهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرامية، وطورا مذهب الواقفية، ولا أنتهض ذابا عن مذهب مخصوص، بل أجعل جميع الفرق إلباً واحدا عليهم». [تهافت الفلاسفة، ص 68-69]

الفهم

استخلاص المضامين:

- أستخلص من النصين معالم شخصية الإمام الغزالي الفكرية ومنهجه الفلسفي.

الشرح:

- **غائلة:** داهية ومصيبة.
- **إلبا:** حشدا وجمعا.
- **تهافتهم:** تساقطهم.

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: أبو حامد الغزالي ومسيرته العلمية

حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي - نسبة إلى غزالة وهي بلدة توجد بجوار طوس، من أعمال خراسان (450هـ-505هـ) - أصولي فقيه متبحر، فيلسوف ناقد مقتدر، متكلم أشعري نظار، متصوف مُربّ كبير، مُحجّاج مناظرِ جُسُور، خاض في جميع أصناف المعرفة، وكان كثير التطلع إليها، غواصا على المعاني الدقيقة، يتهجم على كل مشكلة، ويتوغل في كل مظلمة، يقول - رحمه الله -: «لم أزل في عنفوان شبابي، وريعان عمري، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السنّ الخمسين أفتحم لجة البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأفتحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل متسنن ومبتدع...» [المنقذ من الضلال، ص 26] كان دأب الإمام الغزالي منذ بزوغ فجره، ونعومة أظافره، الفضول

العلمي، والطموح الاستكشافي، والحس النقدي في فتح الأستار والكشف عن الأسرار؛ لإمطة النقاب عن الأفهام والأنظار. ترك- رحمه الله- مؤلفات كثيرة نذكر منها: المستصفى في علم أصول الفقه- المنقذ من الضلال -الاقتصاد في علم الاعتقاد- تهافت الفلاسفة- مقاصد الفلاسفة- معيار العلم- رسالة أيها الولد- معارج القدس- إحياء علوم الدين- كمياء السعادة، وغيرها كثير.

المسألة الثانية: أثره في الدرس الفلسفي

الإمام الغزالي فيلسوف مسلم ذو طموح وثأب، وعقل جبار، وحس ديني وقاد، أسهمت شخصيته الموسوعية في إنضاج الفكر، وتنمية ملكة الفهم والإبداع إثمارا لمسار التفكير الإسلامي في مواطن الجدل والحوار والمناقشة، بين العقل والنقل، «إنه يدعو إلى تأكيد عدم الكفاية فيما وصل إلينا من المعارف، وإلى نبذ التقليد، وذم الجمود، واستعمال الرأي والاجتهاد بالمعنى الواسع لكلمة رأي واجتهاد، وتبني الاستقلالية في جميع وجهات النظر، ومخاطبة الناس بقدر نصيبهم من التبعية والتقليد، أو الاستقلال والتفكير، تزلفا إلى ثقافة الاتباع والإلغاز والتعظيم، بدل الإبداع والاجتهاد والتقويم في صياغة الوعي الصحيح، والثقافة البانية، والرشد الحضاري المتين». [الغزالي بين الدين والفلسفة، عبد الحميد خطاب، ص412]

يقول- رحمه الله-: «العلم اليقيني هو الذي ينكشف به المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا: من يقلب الحجر ذهباً، والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً. فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا بل الثلاثة أكثر من العشرة، بدليل أنني أقلب هذه العصا ثعباناً وقلبها، وشاهدت ذلك منه لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأما الشك بسببه فيما علمته فلا» [المنقذ من الضلال، ص59]، كان دأب الإمام الغزالي البحث عن الحقيقة، واقتناص ثمرات الحكمة أنى وجدها، وطلب المعرفة والتماسها في جميع مظانها، متتبعا مختلف المدارس التي عج بها عصره: المدرسة الأصولية والكلامية والفلسفية والصوفية، أحاط فكره بمقالات الفلاسفة، مدركا مقاصد أفكارهم، ومتبصرا تهافتها وتناقضاتها، أنفق زهرة عمره في مواجهة الفكر الباطني، وخطره الجارف على الأمة، والفكر الفلسفي المنحرف وفداحة نظراته المتهافتة، لم يمنعه عداؤه للفلسفة والفلاسفة من أن يقر للفلاسفة بوثاقة البراهين وصحة الآراء في فنون العلم والفلسفة، إلا

في الإلهيات البعيدة عن الصواب ، يقول -رحمه الله-: «ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان تهافتهم ، فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعا بالزامات مختلفة ، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية ، وطورا مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذابا عن مذهب مخصوص ، بل أجعل جميع الفرق إلْباً واحدا عليهم ، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل ، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين ، فلنتظاهر عليهم ، فعند الشدائد تذهب الأحقاد» [تهافت الفلاسفة ، ص 68-69]

وقد انتقد الإمام الغزالي الفلاسفة انتقادا علميا في ثلاث مسائل ، وهي: القول بقدوم العالم ، وأن الله سبحانه وتعالى يعلم الكلّيات دون الجزئيات ، وأن الحشر للأرواح دون الأجساد؛ يقول -رحمه الله-: «العالم حادث مخلوق ، خلقه الله من العدم باختياره وإرادته في الزمن الذي أراده ، وعلى الهيئة التي أرادها ، والله خلق الزمان والحركات أيضا . . . نحن بضرورة العقل نعلم أنه لا يتصور موجب بتمام شروطه من غير موجب ، ومجوز ذلك مكابر لضرورة العقل ، فقدم العالم محال؛ لأنه يؤدي إلى إثبات دوران الأفلاك لا نهاية لأعدادها ، ولا حصر لآحادها ، مع أنها لها سدسا وربعا ونصفا ، فالذي يقول بتناهي المكان يلزمه أن يقول بتناهي الزمان ، والحركة ملازمة للزمان من حيث البداية» . [تهافت الفلاسفة ، ص 35-36]

شملت فلسفته مختلف ألوان المعرفة وشتى أصناف العلوم والفنون ، يمكن تقريب ثمرة وسمات مستفاده الفلسفي في النقاط الآتية:

- **فلسفة استعراضية:** تروم استعراض كل الآراء والأفكار والقيم ، ووضعها في محك الاختبار للدرس والتحليل والنقد ، استنادا إلى معيار نقدي فاحص نبيه . يشحذ طرائق النظر السديد ، ويجلي معالم الفكر المفيد ، وأدوات التفكير النافع الأكيد

- **فلسفة معاصرة:** كان الإمام الغزالي أوعى بثقافة عصره ، وأدرى بأدوات البحث المنهجي ، وفنون العلم ومقاصده ، وأفقه بأصول الخطاب وقواعده ، فيلسوف تفلسف عن سعة وعمق ، وجمع بين العقل والنقل والتجربة الوجدانية ، أثبت أن التفلسف ليس هو غاية ما في الأمر ، بل الغاية أن يجعل الإنسان نصب عينيه لب اليقين ، وجوهر الحقيقة . [الغزالي بين الفلسفة والدين ، ص 540-541 بتصرف]

التقويم

1. أعرف بشخصية الإمام الغزالي الفكرية.
2. أحدد الخصائص المميزة لمسار تفكيره.
3. أبرز أثره في الدرس الفلسفي الإسلامي.

الاستثمار

يقول الإمام الغزالي: «لو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث... فناهيك به نفعاً؛ إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلالة». [ميزان العمل، ص 153 بتصرف]

أبين من خلال النص حقيقة الشك عند الإمام أبي حامد الغزالي باعتباره منطلق البحث العلمي، والتصنيف المنهجي في بناء الدرس الفلسفي الإسلامي.

الإعداد القبلي

أبحث عن منهج ابن رشد الحفيد-فيلسوف قرطبة- في بناء مشروعه الفلسفي الإسلامي.